مقابلة أدبية مع : الشاعر ابو سلمى

رحلة الشعر من الشعب .. واليه

حديث أجراه :
ماجد السامرائي

من دمشق . الى بيروت . الى بغداد .. وفلسطين هي المحور : ذلك كان مسار رحلة التكريم للشاعر « أبو سلمى » عبد الكريم الكرمي ..

في هذه الرحلة ، كان « أبو سلمى » يقف أمام جموع محتشدة من الشعراء والادباء ، تنتمي الى جيلين من الحياة والادب : جيل يقترب منه عمرا .. وجيل شاب ، جديد الحياة ، جديد العطاء . غير ان الجيلين لم يتفقا على قضية من قبل كما هما متفقان اليوم على ما لهذا الشاعر من مكانة في الحياة ، والنفس ، والشعر .

ولعل « أبو سلمى » ، وهو يقف مثل هذا الموقف ، يقارن ما يجري له من احتفاء وتكريم ، بما فعل هو ، عبر هذه المسيرة الحياتية ـ الشعرية ، ليحظى بهذا . فليس ما جرى له من تكريم واحتفاء غير صدى لما هو حقيقة . فهو ليس اليوم فقط في « دائرة النور » .. انما هو فيها منذ أن بدأ ثورة الحياة من خلال الشعر .. في أوقات ساوم فيها الكثيرون ، وهادنوا ، فعاشوا حياة رضية ، كسبوا فيها العيش ، وخسروا الحياة ، كسبوا « الوجاهة » ـ في أرذل أشكالها ـ وخسروا الشعب . أما « أبو سلمى » فقد سار بالاتجاه المعاكس لهذا التيار : فكسب الشعب ، وكسبه الشعب .. دون أن يقترب من حاكم ، مهما بلغ .

ينتمي « أبو سلمى » الى جيل له عمق التاريخ في الحياة .. وله نكهته أيضا .. لا بأعوامه السبعين التي يحملها بروحية متفائلة ، تتفتح على مستقبل رحب للامة وانسانها .. وانما بما كان لهذا الشاعر في الحياة ، الاجتماعية والنضالية ، من دور بارز .. كان خلال سنواته التي بدأ بها الشعر والنضال ، في الكلمة ـ الموقف .. وفي الواقع ـ الفعل ، يعي معنى الاستشهاد ، ويعرف ما قد تجرّه الكلمة الصادقة على صاحبها من عذاب ، خصوصا وهي تقال في حضور وجود محاط بشتى الحراب .

ولكن هذا لم يدفع بالخوف ، أو الخور الى نفس « أبو سلمى » ... فكان في العمق من وجود هذه الامة التي ما أن خرجت من ليل الاضطهاد العثماني الثقيل حتى وقعت في براثن التجزئة .. فاذا هي تتوزع أشتاتا ، وتنقسم على نفسها ، أو تقسم عنوة . وكأن كل ذلك التاريخ الذي عاشته الامة .. تاريخ الوحدة القومية ، والابداع الدال على شخصيتها الحضارية ، والشموخ الانساني .. يتراجع ..

كل هذا كان قد تجسد في وعي ورؤية « أبو سلمى » الشاعر ..

ولعل فرادة « أبو سلمى » هي في انه لم يقف أمام هذا التاريخ كبعض من وقف : يبكي ويستبكي على المجد المضاع ، انما جعل كل ذاك التراث المشرق في حياة أمته .. وكل مجدها وتاريخها في حركة وعيه وهو يكتب عما ينبغي أن يفعل الانسان اليوم ، من ثورة على الواقع الرديء ، الى نسف للجسور التي تربط خونة الامة بأسيادهم . ولم تكن صرخات الغضب التي كان يطلقها من عمق ذلك الليل الاستعماري الذي خيّم على الشعب والامة الا اللهيب الذي زاد نار الثورة اشتعالا . (من قصيدة من مثل « لهب » ، القصيدة التي كتبها العام ١٩٣٦) لم تكن مسألة هينة وهي تنطلق من شاعر في مواجهة التردي العربي ، والثورة على « الملوك » الذين لم ير الشاعر فيهم غير « عبيد » .

عن رحلة الشعر : من الشعب .. اليه .. بعد أن تحدث « أبو سلمى » عنها شعرا (تمثل فيه الموقف) .. يتحدث عنها ، هنا ، بلغة التاريخ .. والتقويم لذلك التاريخ .

*** أبو سلمى : وأنت تقف اليوم أمام السبعين ، وأمام هـــذا التكريم الذي يجري لك ، في العراق ، كما جرى في بيروت ودمشق ، أريـد أن أسأل : بأي شعور تستقبل كلهذا ؟.. وهو ما يؤكد أهمية الاتجاه الذي اتخذته في شعرك ، في حياة الاجيال ، كما يؤكـــد أهمية الكلمة ، التي كتبتها ، أو قلتها ، عـــلى صعيد الحياة الثورية العربية ؟**

ـ لا أدري لماذا ذكرت، أيها الاخ ، « السبعين » ؟! لانني أؤمن ان السنين تتساقط أمـام الشعر والنضال في سبيل وطن ، وفي سبيل شعب ..

أنت ترى ان هذه الاعوام الثقيلة التي تحمل تاريخ مأساة وشعب ، لم تزل مثقلة أيضا بالمأساة ، وبتـاريخ الشعب ، وتاريخ النضال . وستبقى هذه الايام ريثا بما ذكرت حتى يعود الشعب الى وطنه ، ويعود الوطن جزءا من الوطن العربي ..

لذلك اذا استقبلت التكريم ، في بيروت من قبل اخواني واهلي .. وفي دمشق أيضا .. وفي العراق ، أنما اعتبره تكريما للقضيـة الفلسطينية أولا ، وللشعب الفلسطيني أيضا .. هذا الشعب المكافح الـذي يجسد الالم العربي ، والهمّ العربي كله . لذلك ما اعتبرت يوما التكريم لانسان ، بل لفكرة .. لموقف . والشعر الـذي يلتزم بقضايا شعبه يعتبر جزءا من تاريخ هذا الشعب . والكلمة التي يحافظ على شرفها ، تماما كما يحافظ على شرف الشعب . لذلك فان هـذا التكريم هو لفكرة ، ولموقف ، ولشعر ملتزم .

*** وهذا هو ما أكدته جميـع الكلمات والبحوث التي ألقيت في المهرجان . وهذا ما يدعونا للعـودة الى المرحلة التي بدأت بها خطك الشعري هـــذا . حبذا لو تعـــود بنا الى « البدايات » التي منها تشكلت هذه النواة الشعرية ـ الثورية ، بهذا الموقف الملتزم .**

ـ انها مرحلة طويلة ، وقاسية .. ولا أستطيع أن أتحدث عنها طويلا ، مع ان الامر يستدعي وقفة طويلة .

عندما ولدت في طولكرم ، بفلسطين ـ وهي مركز قضاء بني صعب ـ كان ذلك في أيام الحكم العثماني .. في أواخر أيام ذلك الحكم . فتحت عينيّ واذا بضباط عثمانيين يأخذون والدي ، الشيخ سعيـد الكرمي .. ولم أعرف الا بعد مدة ، عندما سألت عنه ، انهم أخذوه مع أحرار العرب للمحاكمـــة التاريخية (محاكمة عـلي العرفية) بأمر جمال السفاح.. فحكم عليهم بالاعدام .. وحكم على والـدي كذلك .. ولكـــن بسبب كبر سنّ والدي، وصفته العلمية (كان شيخا عالما ، كبير السن) أبدل حكم الاعدام عليه بالحكم المؤبد .. فأعدم رفاقه ، بينما سجن هو في دمشق سنتين وستة أشهر ... ثم انتهت الحرب العالمية (الاولى) ، وكنا نفكر بفجر الحرية والاستقلال والوحـــدة العربية .. وعاد والدي الـى طولكرم .. واذا بالهموم تبدأ من جديد ، واذا بـــدول الحلفاء تقسم البلاد العربية وتتآمر عليهـا .. وابتـدأ النضال من جديد ..

*** ومن هذا الواقع .. من داخل هذا الهم ، كان هناك رفاق آخرون لك ، في الشعر والنضال .. طالما حدثتنا عنهـم شعرا .. حبذا لو نتوقف هنا قليلا عند هذه المرحـــلة .. عند هؤلاء الاشخاص الذين رافقوك فـي الحياة ، والنضال ، والشعر ، والهمّ ..**

ـ قبل أن أصل الى هذه النقطة ، أريد أن اقول : انني درست في دمشق .. وجاء والـدي نائبا لرئيس المجمع العلمي فيهـــا .. وفي دمشق تكوّنت النـواة

الثانية : من اساتذة ، ومن موقع دمشق القومي . وحضرت كيف ذهب الامل العربي وأتى الفرنسيون الى دمشق .. وكنت طالبا في مدرسة ابتدائية فيها . بعد ذلك درست الثانوية في دمشق أيضا .. والهموم الكبيرة الثورة في دمشق ضد الفرنسيين والاحتلال (الثورة الكبرى) ؛ ثم عدت الى فلسطين ؛ اثناء الدراسة الثانوية بسنة في السلط ، بالاردن .. ولكن عندما عدت الى فلسطين كان اللهيب يبتدىء في هذا القطر..

ذكرت هذا لشيء واحد : ليست همومنا فلسطينية فقط .. وانما همنا هو الهمّ العربي الكبير . وهمّ فلسطين هو هم عربي كبير .

هذه الناحية أذكرها قبل أن أصل الى الجواب على سؤالك ..

في فلسطين ـ وكنا في مطلع الفتوة ـ تصادقنا مع رفاقنا الشعراء . ومع آبائنا الشعراء الكبار ، وسرنا معظم الرحلة ـ كنت أنا وابراهيم طوقان ؛ وجاء عبد الرحيم محمود تلميذا لابراهيم ؛ يلتحق بالركب ـ عشنا هذه الفترة معا في فلسطين.. عشنا شعرا وحياة وقضية ؛ وظهر كل هذا في شعرنا في ذلك الوقت .

أريد أن أشير الى نقاط أساسية في تلك المرحلة :

● النقطة الاولى . وهي مهمة في نظرنا : **الالتفات الى الشعب** . في عصرنا كان الزعماء التقليديون ، والشعراء التقليديون ، يلتفتون الى الملوك والرؤساء .. والزعماء التقليديون ، والملوك أيضا ، كانوا يلتفتون الى « الصديقة » ـ كما يصفونها ـ وهي : الدولة المنتدبة ؛ بريطانيا . فكانوا يوجهون النضال ضد اليهود كيهود فقط . أما الشعراء فقد وجهوا النضال ضد الاستعمار.

● وهذه هي النقطة الثانية :

قبلنا . حين كان يحصل خصام بين العرب واليهود ؛ تأتي الحكومة البريطانية « حكما » وتظهر نفسها على انها « الحكم المنصف ؛ المستقل » .. ولكنها كانت ، من وراء ذلك ، تسعى ، مع الصهيونية ، لاستلاب فلسطين ومحو الشعب الفلسطيني . لذلك كان للشعراء دور في التوجيه الى الخصم الاساس ، وفي التنبيه الى الاعيب الاستعمار .

● النقطة الثالثة ، التوجه الى أفراد الشعب ، والى الحركة العمالية والفلاحية . كان الفلاحون يشكلون معظم الفلسطينيين ، والعمال حركة ناشئة .. فكان للشعراء دور في توجيه وتحييد العمال والفلاحين ، والسعي والحث على تغيير أوضاعهم السيئة ، لان في تغيير ذلك تغييرا للمجتمع . ولذلك فان المؤتمرات العمالية التي كانت تعقد في ذلك الوقت ، أعتبرها مؤتمرات طليعية.. وكان الشعراء الفلسطينيون ـ وكنت لحسن الحظ من بينهم ـ يحيون العمال في مؤتمراتهم .. كما نحيي الفلاحين ، وسعينا هو محو الحيف والظلم عنهم .

● النقطة الرابعة : لم تنسنا قضية فلسطين ، ولا همّ فلسطين ـ وهو يشغل كل النفس وكل القلب ـ هموم الوطن العربي . من خلال صراع فلسطين شاركنا اليمن في مأساة حكم الامام ، ومصر في مأساة الحكم في ذلك الوقت .. البلاد العربية كلها كنا نشاركها همومها .

● النقطه الاخيرة هي اننا ـ او الشعراء في ذلك الوقت ـ كان الشعور عندهم انسانيا.. متعلقا بالانسان. لذلك ترى التربة الفلسطينية ـ نحن نشأنا غراسا على التربة الفلسطينية ـ في شعرنا تربة عربية الجذور .. انسانية الاغصان والظلال. لذلك ترى في أشعار الشعراء في ذلك الوقت كيف كانوا يدافعون عن حرية الانسان ، لان الانسان لا يمكن أن يستعبد ، ولا يمكن لشخص أن يكون طريقا لاستعباد آخر . وقد كان هذا صراعا أيضا . قد يكون الآن بسيطا ، كما يبدو ، ولكنه ، في وقتنا ، كان صراعا مريرا ، لان الزعماء التقليديين ، أو بعضهم ، كانوا يعلنون : « ان مصلحتنا هي مع مصلحة بريطانيا ، لاننا على طريق الهند ، والهند هي درة التاج البريطاني » . كانوا يقولون هذا في الاحتفالات الكبرى . بينما يقف الشعراء ، في ذلك الوقت ، يقولون : « نحن لا يمكن أن نساعد بريطانيا على استعباد آخرين ، وان الهند هي « درة هندية » لا درة من التاج البريطاني » .

من ذلك الوقت ـ واسمح لي أن أقول ـ كان للشعراء دور طليعي ، ليس فقط في فلسطين ، بل في الشعر العربي ، حول هذه الاهداف .

*** واي أثر كان كل هذا يحدث في نفوس الجماهير ، وفي واقعها ؟ كيف كانت تستقبل شعرك وشعر رفاقك المتمحور حول هذه الاهداف ، السائر ضمن هذه التوجهات النضالية ـ القومية ـ الانسانية ؟**

ـ نحن من الذين يؤمنون ان الشاعر الذي يعبّر عن احساس شعبه ـ لانه ابن هذا الشعب ـ يتجاوب معه شعبه ..

كانت القيادات لا تسير مع هذا الشعب .. وهي مقصرة عن أهدافه ، وعن ثورته .. لذلك كنا نقول : القيادات يجب أن تسمو الى الشعب .. وتتعلم من الشعب . لذلك قد تتعجب كيف كان هذا الشعب يتقبل أشعارنا ، سواء كان ذلك في المؤتمرات ، أو في الاحياء، أو في الاجتماعات . وكثيرا ما قابلت بعض الثائرين في ثورة (١٩٣٦ ـ ١٩٣٧) ـ وهذا ما أعتز به ـ .. تجد

ثائرا . لا أعرفه ، كان في جبال رام الله ، أو القدس ، أو جبال نابلس ، يخرج من جيبه قصيدة من قصائدي ..

أعتبر هذا هو التكريم .. انني متجاوب فعلا مع هذا الشعب .. وانني ابن هذا الشعب .

*** هذا الاستقبال الجماهيري لشعرك ، بأي اتجاه اثّر عليك ؟**

ـ هذه رحلة طويلة .. هذه الرحلة الطويلة التي سرت بها ما خرجت يوما عن طريق الشعب ، وما كذب احساسي ، أو خالف احساس هذا الشعب . لذلك ، فان هذا التاريخ الطويل كان سائرا في طريق صحيح . ولو لم يكن صحيحا لما كنت أجد له صدى الآن .. في أبنائنا ..

هذا أرضى ضميري ، بأنني صادق في احساسي ، وانني صادق في عدم القاء الكلمة العربية الفلسطينية على الارض ، أو على أعتاب أحد ، أو في الوحل . صنتها لانها قسم من الشعب ..

فاذن ، هذا الشعب المناضل ، الشجاع ، الذي يعيش قضيته الملتهبة ، والذي لم يساوم عليها بالرغم من مؤامرات عالمية كبرى ، داخلية وخارجية .. عربية واجنبية ، يقف صامدا . هذا ، أيضا ، يبعث بي الامل في أن أسير معه الى النهاية .

*** بمعنى ان الشعب كان هو مدرستك الاولى .. منه قبست جمرات الكفاح ، واعلنت الكلمة الجريئة المعبّرة عن روح هذا النضال ..**

ـ هذا الكلام لك .. أنت ترى ما تراه .. انا ذكرت احساسي وشعوري ببساطة ، كبساطة شعبي .. واضحة ، صادقة ، ملتزمة .

*** حين نعاود قراءة شعرك ، نلاحظ فيه الجراة على قول الكلمة الثائرة ، الصريحة .. وهي قضية لم تكن سهلة في الفترة ، أو الفترات التي قلتها فيها .. لما سادها من اضطهاد ، وقمع ، ومصادرة .. للانسان ، والكلمة الحرة الشريفة .**

ـ هذا صحيح . قد يكون بعض اخواننا ، أو بعض الناس ، انتابهم الضعف .. وذهبت كلمتهم الى موضع آخر ... مع الاسف صارت الكثير من الكلمات شعارات : ليس لافراد ، بل لحكومات .. شعارات زائفة . فالكلمة الزائفة سارت مع هذا الجو . ولكن هذا كله زبد يذهب جفاء .. وتبقى الكلمة الصادقة ، الصحيحة غير المزيفة ..

ان العطاء يجب أن يعطى دون انتظار ثواب أو جزاء .. بالعكس ، في البلاد النامية ، الساعية الى الحرية ، يجب على الشاعر أن ينتظر من الكلمة الشريفة جزاء وعذابا .. ويجب أن يتقبله بسرور ولذة ، لانه ، بهذا ، انما يدافع عن فكره ، وبدفاعه عن فكره يدافع عن شرف شعبه ووطنه ..

*** لانهما الخالدان ...**

ـ تفنى الزعامات وأشباهها

والخالدان : الشعب والوطن ..

*** هذا ما قلته من قبل .. وتؤكده اليوم ..**

بغداد